# العلاقة بين المتكلم والمخاطب ومراعاتها في الأحكام النحوية في كتاب سيبويه .

م.م ثمينة أحمد هيلان
جامعة تكريت / كلية التربية . سامراء

## المقدمة

يعتقد عدد من الباحثين أَن علماء البلاغة القدامى وحَدهم كانوا يعنون بالجانب الدلالي والمعنوي وأَن البحث في المقام وأحوال المخاطب من اختصاص علم البلاغة لما عرفت عندهم من دراسات عمَّا يسمى ( مقتضى الحال ) ، فقد لقي هذا الموضوع اهتماماً كبيراً من لدن البلاغيين عند دراستهم بلاغة القول ، لذلك عرَّفوا البلاغة في الكلام بأنها : (( مطابقته لمقتضى الحال ، ذلك أَنَّ مقاماته متفاوتة فمقام كلٍّ من التنكير ، والاطلاق ، والتقديم والذكر ، يباين مقام خلافه ، وكذا خطاب الذكيّ مع خطاب الغبيّ ، ولكلّ كلمة مع صاحبتها مقامٌ وارتفاع مستوى الكلام ، في الحسن والقبول ، بمطابقته للاعتبار المناسب ، وانحطاطه بعدمها ، فمقتضى الحال هو الاعتبار المناسب ))[١]

غير أن ما ذهب إليه البلاغيون وما كان معروفاً عند النحويين الأوائل لا يختلف كثيراً فهم أَول مَنْ قال بمراعاة الأحوال المحيطة بكلٍّ من المتكلم والمخاطب ، ولا ننسى أنهم مَنْ وضع اللبنات الأولى لهذا الجانب المعنوي مؤكدين في دراساتهم على حال المخاطب وعلاقاته وظروفه المحيطة به وأثر ذلك في كثير من الأحكام النحوية التي تكون معظمها استجابة لما يكون عليه المخاطب .

وقد طور الجرجاني مع عدد من العلماء الدرس النحوي بإدراكهم أهمية البحث في العلاقة بين أطراف الكلام لايصال المعاني بدلالات فهو يقول (( الدلالة على الشيء هي لا محالة اعلامك السامع إيّاه ، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولاً عليه ... أَن الناس إنّما يكلم بعضهم بعضاً ليعرف السامع عرض المتكلم ومقصوده ، فينبغي أن ينظر إلى المقصود المخبر من خبره ، وما هو ؟ أهو أنْ يعلم السامع وجوه المخبر به من المخبر عنه أم أن يُعلمه إثبات المعنى المخبر به للمخبر عنه[٢]

وقد تخطى الفكر العربي في الدرس النحوي حدودَ الشكل إلى الأُمور المعنوية التي تعبر عن مقاصد المتكلمين في مختلف الميادين ، ومنها التي يدّعي المحدثون أنهم قد ابتكروا أو خاضوا فيها لأول مرة . ولذلك جاء هذا البحث ليكشف اهتمام النحويين الأوائل بالطرف الثاني للكلام وهو المخاطب . وتحديداً في أقدم كتاب نحوي وصل إلينا ، وهو كتاب سيبويه لاستجلي منه وجوه مراعاة المخاطب وأحواله في الأحكام النحوية محاولة استقراء ذلك من نصوص الكتاب مقتصرة

على مضامينها ، لأظهر وجهاً من وجوه مناهج البحث النحوي القديم ، وقد قُسم البحث إلى مبحثين :

تضمن المبحث الأول اهتمام سيبويه بحال المخاطب وحواسه وعلاقته بالمتكلم .
أما المبحث الثاني فقد تضمن حالات المخاطب أثناء المرور به ، وما يبنى على ترقبه وتوقعه ، والاهتمام بقول المخاطب .
ختامًا أسأل الله العلي القدير أن يوفقني لما فيه الخير لأمتنا وتراثنا .

## المبحث الأول :

### ۞الاهتمام بحال المخاطب :

أولى سيبويه حال المخاطب اهتماماً كبيراً ووصفها أو أَخبر عنها وأوضح ما يقتضيه ذلك من تلاؤم مع الحكم الذي يسوقه إما بإشارات أو عبارات صريحة فقد شخص حال المخاطب من ناحية الاقبال أو الانتباه ، لأن إقبال المخاطب على المتكلم وتنبهه له وإصغاءَه إليه ، ذو أَثر كبير في نفس المتكلم وقد يصل الأمر إلى حد الاستعطاف إذا علم أَن مجرد السماع لا يغني ، وقد أولى النحاة هذا الجانب أهمية كبيرة في دراستهم وما قاله ابن جني يعد دليلاً واضحًا لبيان أهمية إقبال المخاطب (( أولا تعلم أن الإنسان إذا عناه أمرٌ فأراد أنْ يخاطب به صاحبه ، وينعم تصويره له في نفسه ، استعطفه ليقبل عليه ، فيقول له : يا فلان أين أنت ؟ أَرني وجهكَ ، أقبل عليّ أُحدثُكَ ، أما أنت حاضر يا هناه ، فإذا أقبل عليه ، وأصغى إليه إندفع يحدّثه ، أو يأمر ، أو ينهاه ، أو نحو ذلك ، ولا كلَّف صاحبه الإقبال عليه والإصغاء إليه ))[٣] .

فغاية المتحدث لا تقتصر على اسماع المخاطب فحسب بل لتحقيق اقباله ليكون وجها لوجه معه ، مقبلاً إليه بكل جوارحه وهذا من آداب الحديث التي ينبغي أَن يربى المرء عليها ، وهذا ما اهتم به سيبويه في مسائل كثيرة ، وعلل به كثيراً من الأحكام ، ومن ذلك أنه لحظ في باب التعجب والاستغاثة أَن حال المخاطب في كل منهما يطلب إقباله ، قال سيبويه (( وأما المستغاث فـ(يا) لازمة له ، لأنه يجتهد ، فكذلك المتعجب منه وذلك يالناس ، ويالماء ، وإنما اجتهد لأن المستغاث عندهم متراخٍ أو غافل ، والتَّعجب كذلك لأنهم يحتاطون ويدعون ما قد فات ويعد عنهم ))[٤] .

فسيبويه كان يتخيل حال المخاطب الغافل المنشغل بأَعماله وشؤونه ويتخيل كذلك حالة المتكلم الذي يرفع صوته ويمده ، ليثير مشاعر الخوف والاستعطاف في نفوس المخاطبين أما لفظ ( رويد ) فقد لحظ سيبويه أَنها تقع للواحد والجميع ، والذكر والأنثى ، فتدخل عليها الكاف وأحياناً لا تدخل ، فعلل ذلك بقوله (( فلحاق الكاف كقوله يا فلان للرجل حتى يقبل عليك ، وتركها كقولك للرجل ( أنت

تفْعَل )اذا كان مقبلاً عليك بوجهه منصتاً لك ، فتركت يا فلان حين قلت : أنت تفْعَل ، استغناء باقباله عليك ، وقد تقول أيضاً : رويدك : لمن لا يخاف أَن يلتبس بسواه ، توكيداً ، كما تقول للمقبل عليك المنصت لك : ( أنت تفْعَل ذلك يا فلان ) توكيداً ، ... ولو لم تلحق الكاف كنت مستغنياً كاستغنائك حين كان المخاطب مقبلاً عليك عند قولك : يا زيد ))[٥] .

فإذا كان المخاطب في حال اقبال لم تكن به حاجة إِلى ضمير الخطاب ، لذلك فإن دخول الكاف على ( رُوَيْدَ ) يكون توكيدًا في الكلام ، ونظير قولهم في باب الاختصاص أيّها القومُ ، واللهم اغفر لنا أيتّها العصابة ، فإنْ ذكر أداة النداء ليس لغرض التنبيه لأنّ المخاطب مقبل على المتكلم ، تنبه إليه ، لكنّه يذكر ( أي ) توكيداً ،لأَنّ غايتَهُ الاختصاص ، وليس طلب الاقبال ، قال سيبويه (( ولكنّه أكد كما تقول للذي هو مُقبل عليه بوجههِ مُستمعٌ منصت لك ، كذا كان الأمر يا أبَا فلان توكيداً ، ولا تدخل ( يا ) ها هنا لأنك لست تنّبه غيرك ))[٦] .

ويتضح من ذلك إدراك سيبويه لأهمية اقبال المخاطب في هذه المواضع من خلال ما يجري بين المتحدث والمخاطب من كلام ، وأَن هذا المخاطب يجب أَن يكون مقبلاً عليه متنبها لما يقوله لأن الكلام لا جدوى منه إِنْ لم يكن له مستمع بعينهِ لذا قال سيبويه (( ولأنّ أوّل الكلام ابدأ النداء ، إلاّ أنْ تدعه استغناء باقبال المخاطب عليك ، فهو أول كل كلام لك ، به تعطف المتكلم عليك ، فلمّا كثر ، وكان الأول في كلِ موضع حذفوا منه تخفيفاً ، لأنهم ممّا يغيّرون الأكثر في كلامهم ))[٧] .

ويظهر إدراك سيبويه لهذه العلاقة بين المتكلم والمخاطب في حديثه عن الحروف التي ينبه بها وهي ( يا ، وأيا ، وهيا ، وأَيّ ، وهمزة التنبيه ) فكل واحد من هذه الحروف له القدرة في مد الصوت عدا ( همزة التنبيه ) لأَنَّ الصوت بالهمزة لا يحتاج الى مَدّ في حين تتفاوت درجة إطالة الصوت في الحروف الاخرى لتناسب طبيعة الحياة البدوية التي يكون فيها المخاطب بعيداً أحياناً لذا يمد صوته لينتبه ويقبل عليه[٨] .

وفسّر ذلك ابن السّراج ،وبيَّن أَن النائم الذي أثقل النوم أو النعاس أجفانه ، أو المعرض الذي يشغل في شأن آخر ، يحتاج كل منهم إِلى مد الصوت وهو ما تؤديه الحروف هيا ، أيا ، وهيا ، وأي . أما همزة التنبيه فينادون بها مَنْ كان مقبلاً ، أو قريباً ، نحو ( أزيدُ لا تلعبْ )[٩] .

تحدّث سيبويه عن حال المخاطب في باب التعجب والاستغاثة مما ينبغي طلب إقباله . فحالة التّراخي والغفلة التي تنتاب المخاطب تجعله لا يُقبل على المتكلم لذا أوجبوا دخول ( يا ) في أسلوب

التعجب و ( وا ) في الندبة (( كأنهم يترنمون فيها ، فمن ثم ألزموها المد والحقوا آخر الاسم مبالغة في الترنم ))[١٠] .

من ذلك يتضح أنّ سيبويه كان يضع في ذهنه حال المخاطب الغافل أو المتراخي المنشغل بأعماله وشؤونه مع مراعاة حال المتكلم الذي يرفع صوته ويمده أحياناً يبالغ في مدهِ حتى يصحبه ترنم ليثير مشاعر الحزن والألم والتفجع في نفوس المخاطبين نحو قول الشاعر :

يا هند هندُ بينَ خِلْب وكبدْ

قال سيبويه (( وقد يجوز أن تقولَ بعد النداء مقبلا على من تحدثه : هند هذه بين خلبْ وكبد فيكون معرفه ))[١١] أي إنّه غيّر هيأته التي كان عليها عند قوله ( يا هند ) ثم أقبل على من يحدثه فالاقبال متبادل لكنه بهيئة غير الأولى .

**۞ رصد حال المخاطب وحواسه وعلاقته بالمتكلم.**

أعطى سيبويه حال المخاطب وتصرفاته اهتماماً واضحاً من خلال رصده للأوضاع التي يكون عليها متأملا تلك الاحوال بالمشاهدة مرة و بالعقلِ والإدراك مرة أخرى ، مستفيدا بما يمتلكه المتكلم من حواسه الخمس التي يدرك بها ما يجري أمامه ، فيصوغ كلامه صياغةً تتناسب وتلك الحالات والأوضاع ، معطياً كل حاسة فعلها الدال عليها وهي:ــ

١- فعل المشاهدة : أكثر ما يميز استعمال سيبويه لهذا الفعل هو استعماله للصيغيتين اللتين تدلان على كل من المضارع والمستقبل في وصف حال المخاطب ، فجاء في باب يكون المبتدأ فيه مضمراً ويكون المبني عليه مظهراً قوله (( وذلك أنّك رأيت صورة شخص فصار آيةً لك على معرفة الشخص فقلتَ : عبد الله وربي كأنك قلت : ذلك عبدُ الله أو هذا عبدُ الله ))[١٢]

وهذا نراه في باب آخر قد سبق الحديث عنه في كتابهِ وهو باب ( ما يضمر فيه الفعل المستعمل اظهاره في غير الامر والنهي ) نلحظ أن فعل الرؤية يتكرر كثيراً قال (( وذلك قولك اذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج... فقلت مكة ورَبَّ الكعبة...كأَنك قلتَ يريد مكة والله ... أو رأيت رجلاً يسدد سهماً قبل القرطاس فقلت القرطاس والله أي يصيب القرطاس ... ومثل ذلك أَن ترى رجلاً يريد أن يوقع فعلاً ، أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلاً ... فتقول ( زيداً) تريد : اضرب زيداً ... وإنّما أَضمرت الفعل ها هنا ، وأنت تخاطب ، لأن المخاطب المخبر لست تجعل له فعلاً آخر يعمل في المخبر عنه ، وأنت في الأَمر للغائب قد جعلت له فعلاً آخر

يعمل ، كأنك قلت : قل له ليضرب زيداً أو قل له اضرب زيداً ، أو مره أن يضرب زيداً ، فضعف عندهم مع ما يدخل في اللبس في أمرٍ واحدٍ أن يضمر فيه فعلان لشيئين )) (١٣) .

وهذه لا تجوز في كل الاحوال بل تقتصر على إدراك المتكلم لحال المخاطب مستكشفاً ما يدور حوله برؤية ذلك بعينه ذلك أَن رؤية العينين تعّين الحال ليكون الفعل الصادر من المتكلم منسجماً مع تلك الحال وذلك يَعني أَن الإخبار في ذلك لا يؤدي ما تؤديه رؤية العينين التي تنقل للمتكلم الأحداث التي تمرُ بالمخاطب والحالات التي تجري حوله (١٤) .

وتتضح استنتاجات النحويين من خلال هذا التصور والوصف الدقيق لحال المخاطب كما أوضحه سيبويه في وصفه لرجل يحمل قوسه وسهمه في حال تسديد أو رؤيه عصيّ وسياط بأيدي من يتأهب لضرب شخصٍ ما ، أو غيرها من الأمثلة التي سبق ذكرها ، لذلك فأن النحويين استنتجوا في حال حذف كل فعل كان ينبغي ان يذكر الحال التي دلت على حذفه لمعرفة المخاطب بهذه الحال إذ لو لم يكن محيطاً بتلك الحال مشاهداً لها لصار الكلام غريباً عليه (١٥) .

وهذا ما دفع النحويين المتأخرين ومنهم ابن مضاء القرطبي الى رفض التأويل والتقدير لأن التأويل وإِن كان مطابقاً لما يقتضيه المعنى في الظاهر إلا أَنّ العلم بالدلالات والقرائن يجعل التقدير والتأويل تحميلاً للنص أكثر مما يقتضيه ويدل عليه (١٦) .

ونصَّ سيبويه على جانب آخر هو القيمة المعنوية لاستغناء المخاطب بما يرى المتكلم إذ قال في باب ( ما ينتصب على إضمار الفعل المتروك اظهاره في الأمر والتحذير (( وإنّما حذفوا الفعل في هذه الأشياء حين ثنوا لكثرتها في كلامهم واستغناء بما يرون من الحال ، رُبّما جرى من الذكر وصار المفعول الأوّل بدلاً من اللفظ بالفعل )) (١٧) .

ولا شك أن ما يتطلبه التعليم من إيضاح وتجسيد ، وأَنّ أَكثر الدارسين من الأعاجم هما السببان اللذان صرفا النحاة عن الأخذ بدلالة الحال ، واستغناء المخاطب عن ذكر ما كان ينبغي أن يكون عليه الكلام من حيث بناء الجملة وجعلهم يعولون كثيراً على التأويل والتقدير (١٨) .

٢- فِعْل السَمْع : استعمل سيبويه فعل السمع لاستجلاء الأحوال التي ترفع فيها الأصوات على مقربة من المخاطب فيكون سماعه دليلاً معنوياً لإيصال المعنى المراد مثال ذلك قوله في (إضمار الفعل المتروك إِظهاره في المصدر المشبه به ) في نحو قولنا ( مررتُ به فإذا له

صوت صوت حمار ومررتُ به فإذا له صراخٌ صراخ الثكلى (( فإنما انتصب هذا ، لأنك مررت به في حال تصويت ))[١٩] .

فالصوت في هذه الأمثلة قرينة حالية تجعل المتكلم يصوغ أقواله في ضوء سماع هذا الصوت سواء بمعرفة المخاطب أم بإدراكه أنّ المخاطب يفهم دلالة هذا السماع .

٣- أفعال اللمس والشم والذوق : ذكر سيبويه في باب المبتدأ المضمر كلاً من اللمس والشم والذوق مرة واحدة فقال : (( ..... أو مسست جَسداً ، أو شممت ريحاً ، فقلتُ : زيدٌ أو المسك أو ذقت طعاماً فقلت : العسلُ ))[٢٠] .

والألفاظ في هذا النص واضحة تدل على معرفة سيبويه هذهِ الحواس واعتقاده بقدرتها على تقريب الحال المدرك بالشم أو اللمس أو الذوق ليكون دليلا يسوّغ التصرف في بناء التراكيب من دون الحاجة إلى تقدير محذوف فالحال تصبح كاشفة عن المعنى المقصود .

والمقصود في هذا النص هو بيان لاستعمال هذه الحواس فهذا يوضح ان المقصود هو زيد من خلال مسح يد المتكلم أو أنامله بجسد زيد ، أو وجهه من غير إعمال لحاسة الرؤية والسماع .

ويستطيع المتكلم الحكم على الشيء الذي فاح شذاه هو ( المسك ) مستفيداً من حاسة الشم كما يستطيع تمييز العسل من غيره مستعينا بلسانه لتذوق طعمه ولذلك فإن إدراك هذه الأمور بحواسه تجعله في غنى عن ذكر المبتدأ لما أنباته به الحال الملموسة أو المشمومة أو المذاقة . وهذا ما جعل المبرد يعبر عن ذلك في قوله (( جاز أن تُضمِر المبتدأ إذا تقدم من ذكره ما يفهمه السامع ))[٢١] .

## المبحث الثاني :

### ۞حالات المخاطب أثناء المرور به والإخبار عنها :

أورد سيبويه عبارات كثيرة تدُّل على حال المخاطب ومعرفة المتكلم بها سواء بالمرور به أو بالاطلاع على حاله والإخبار عنها . فنوع سيبويه عبارات في هذا الوصف فقال في منع إضمار الفعل لأن الحال لا تفسر المضمر (( أنْ تنتهي إلى رجل لم يكن في ذكر ضَرْب ، ولم يخطر بباله فتقول زيداً فلا بدّ له من أَن تقول له : اضرب زيداً ))[٢٢] . فيصف ما في نفس المخاطب ، وما يخطر بباله ، لذا فإنّ عدم إرادة الشيء إنّما هو خلو الذهن وعدم التفكير به وهذا ما عناه بقوله ( لم يخطر ببالهِ ) .

وأحياناً يصف سيبويهِ ما في نفس المخاطب كما يدركها المتكلم ، وكأنه يدخل غور تلك النفس ، ويعلم ما فيها من أحاسيس ومشاعِر ، ففي باب الاستثناء عند حديثهِ عن ( لا يكون وليس وما أشبههما ) (( وذلك قولك ما أتاني القوم ليس زيداً ، وأتوني لا يكون زيداً )) ، وما أتاني أحد لا يكون زيداً ، فإنه حين قال : أتوني صار المخاطب عنده قد وقع في خلده أن بعض الآتين زيد )) (٢٣) ، وعبارة ( قد وقع في خلده أنّ بعض الآتين زيد ) وصفٌ لباطن المخاطب ومعرفة لما يدور في عقله ، لذا قدّر الكلام بما يدل على التبعيض (٢٤) .

يؤكد المتكلم كلامه للمخاطب لإزالة الإنكار والشك من ذهنه عن طريق اسلوب القسم فيكون توكيده باللام ونون التوكيد ، في قولنا ( والله لأفعلنَّ خيراً)

ذكر الخليل انهم أجازوا قولهم ( أقسمتُ عليك إلاّ فعلت ) ، نظير القسم وكأنه قال : ( لتغفلَنَّ ) (٢٥) ولكنهم أجازوه بغير اللام والنون لأنهم شبهوه بنَشَدْتك الله اذا كان معنى الطلب.

ويعبر السيرافي عن ذلك قائلاً (( وأمّا أقسمتُ عليك إلا فعلت ولما فعلت فإنّ المتكلم إذا قال أقسمتُ عليك لتفعلَنَّ فهو مُخبر عن فعل المخاطب أنّه يفعله ، ومُقسم عليه فإذا لم يفعله فهو كاذب لأنَّه لم يوجد خبره على ما أخبر به )) (٢٦) .

**۞ ما يبنى على ترقب المخاطب وتوقعه :**

إن حال الترقب يبنى عليها كثير من العلل والأَحكام من خلال مايلمسه المنتج لأقوال النحويين ، فالخليل يفسر تسمية ضمير الفصل بهذا الاسم بقوله (( فجاز هذا في هذه الأفعال التي الأسماء بعدها بمنزلتها في الابتداء إعلاماً بأنه قد فصل الاسم ، وأنّه فيما ينتظر المحدّث ويتوقعه منه ، ممّا لابُدّ له من أن يذكر للمحدّث ... فكأنه ذكر ( هو ) ليستدل المحدّث أنَّ ما بعد الاسم ما يخرجه ممّا وجب عليه ، و أن ما بعد الاسم ليس منه )) (٢٧) .

أما المتأخرون فقد ذهبوا إلى تفسير مشابه اختصره الرضيّ بقوله (( إنمّا سميّ فصلاً لأنه فصل بين كون ما بعده نعتاً وكونه خبراً ، لأنك إذا قلت ( زيدٌ القائم ) ، جاز أن يتوهم السامع كون ( القائم ) صفة فينتظر الخبر فجئت بالفصل ليتعين كونه خبراً لا صفة )) (٢٨) .

لكن يبقى رأي كل من الخليل وسيبويه هو الراجح كما أورده الرضي على رأي المتأخرين بقوله : ((ومآل المعنيين إلى شيء واحد إلاّ أن تقديرهما أحسن من تقديرهم )) (٢٩) .

ونلحظ في القولين إنّ ما يكون عليه المخاطب من انتظار هو الأَساس في صياغة هذا المصطلح ومثل ذلك دخول ( قد ) على الفعل من غير فصلٍ بينهما أنّه جواب لقوله ( أفَعَل ؟ ) كما كانت ( ما فَعَلَ ) جواباً لـ ( هل فَعَل ؟ ) إذا أخبرت أنّه لم يقع، و( لما يفعل ) و( قد فَعَلَ ) إنما هو لقوم ينتظرون شيئاً فمن ثم أشبهت ( قد ) ( لمّا ) في أنّها لا يفصل بينها وبين الفعل (٣٠) .

ذلك ما فسَّره سيبويه ، وأوضحه السيرافي بقوله (( لأنّ منزلة ( قد ) من الفعل كمنزلة الألف واللام من الاسم لأن دخولها على ( الفعل ) متوقع أو مسؤول ، لأنه اذا قال : ( قد قام زيد ) فإنّما يقوله لمن يتوقع قيامه أو لمن سأل عنه فقال : ( هل قَامَ زَيدٌ ؟ ) ،واذا قال : ( قَام زَيدٌ ) فإنّما يبتدئ إخباراً بقيامه لمن لا ينتظره و لا يتوقعه فأشبهت ( قد ) العهد في قولك ( جاءني الرجل ) لمن عهده المخاطب او جرى ذكره عنده )) (٣١) .

فيكون المخاطب في حالتي الترقب والتوقع منتظرًا لحصول حدث متوقعًا لجريانه ، متلهفاً بكل حواسه لحدوثه . فيصوغ المتكلم كلامه في ضوء هاتين الحالتين . لذلك فإن الحال التي يكون عليها المخاطب في اقباله أَو انصاته أَو انشغاله أَو ترقبه هي ما تستدعي المتكلم لصياغة الكلام بناءً و إعراباً في ضوء ما تقتضيه الحال .

**۞الاهتمام بقول المخاطب :.**

ويتخيل سيبويه مخاطباً يدور في ذهنه كلامٌ فيصيغ المتكلم جملَهُ بما يناسب كلام ذلك المخاطب ، ففي حديثه عن نصب ( زيد ) في مثل قولنا : ( مَنْ أَنتَ زيداً ) قال (( لم يُحمل ( زيداً ) على ( مَنْ ) ولا ( أنت) ، ولا يكون ( مَنْ أنتَ زيدًا إلاّ جوابًا ، فإنه لما قال :أنا زيدٌ ، قال : فمن أَنتَ ذاكراً زيداً )) (٣٢) .

ويجري سيبويه حواراً خيالياً لمخاطب يقول قولاً ويرد عليه رجل آخر هو المتكلم موضحاً ذلك بالبيان والبرهان قال (( ويقول الرجل ( يا ويلاه ) ، فيقول الآخر : ( ويلاً كيلاً ) ، كأنه يقول :لك ما دعوت به ويلاً كيلاً ، يدلك على ذلك قولهم إذا قال : ( يا ويلاه ) : ( نعم ويلاً كيلاً ) ، أي : كذلك أمُرك ، أو : ( لك الويل ويلاً كيلاً ) (٣٣) .

لذا يمكن القول إنّ سيبويهِ يُعنى كثيراً بقول المخاطب سواء كان قوله حقيقة أم متخيلاً لاعتقاده بأن المخاطب أَساس في استمرار التفاهم والاتصال بين المخاطب والمتكلم لذا لايمكن للمتكلم أَن يصوغ كلامه بعيدا عن معرفتهِ بالظروف الاجتماعية والنفسية المحيطة بالمخاطب .

وكان من الأُمور المميزة في كتاب سيبويه هو جعل المخاطب سائلاً ومستفسراً فهو يتخيل أَنماطاً من الأَسئلة يصوغها على لسان المخاطب قال :

(( وممّا يبين لك أنّ الصفة لا يقوى فيها إلاّ هذا أنّ سائلاً لو سألك فقال :( هل سِيْرَ عليه ) لقُلتَ: ( نعم سِيْرَ عليه شديداً ) ، و( سِيْرَ عليه حسناً ) فالنصب في هذا على أَنه حال وهو وجه الكلام لأنّه وصفُ ( السير) ولا يكون فيه الرفع))(٣٤) .

فسؤال المخاطب هو المعّول عليه في تقرير الحكم رفعاً أَو نصباً حيث قال موضحاً ذلك : (( فإنّما يحمل على ما يحمل السائل ، كأنّهم قالوا ( أَيهم أَتيت ؟ ) فقلت : ( زيداً ) .(٣٥)

وكذلك في حال الجر والرفع يقرر سيبويه ذلك في ضوء تعليق السائل على قولنا ( مررتُ برجلين مسلمٍ وكافرٍ ) قال (( وإِن شئتَ كان المسلم والكافر بدلاً كأنه أجاب منْ قال : ( بأيّ ضربٍ مررت ؟ ) وإِنْ شاء رفع كأنه أَجاب مَنْ قال : ( فما هما ؟ ) فالكلام على هذا وإنْ لم يلفظ به المخاطب لأنه إنما يجري كلامه على قدر مسائلتك عنده لو سألته ))(٣٦)

يلحظ في هذا المقام أَنّ المخاطب لم يسأل حقيقة بل تخيل المتكلم مثل هذا السؤال وقد يكون سائلاً حقيقة ، وقد يكون مما تخيله سيبويه لتوضيح الحال .

كان هذا الموضوع الأَساس الذي بنى عليه البيانيون آراءهم في كثير من الأحكام المتصلة بالجملة ، ذكر ابن هشام أَن البيانيين يخصّون الاستئناف بما كان جواباً لسؤال مقدّر نحو قوله تعالى : ( هل أَتاكَ حديثُ ضَيف إبراهيم المكرمين ، إذ دَخَلوا فَقالوا سَلاماً قالَ قومٌ مُنكَرَون )(٣٧) .

فإِنّ جملة القول الثانية جواب لسؤال مقدَّر تقديره ( فماذا قال لهم ؟ )(٣٧)

## الخاتمة

نستنتج مما تقدم في نظرة سيبويه لحال المخاطب ومما يجب عليه من صياغة الكلام :

- إنّ سيبويه كان عميق التفكير في حال الطرف الثاني من الكلام وهو المخاطب ودقيقاً في أحواله ويتخيلها ليبين ما كان منها من غفلة أو نسيان أو انشغال أو نوم أو غير ذلك .
- يفسر سيبويه كثيرًا من الاستعمالات اللغوية وطرائق البناء في الجملة العربية ، وحالات الإعراب المختلفة في ضوء ما يكون علية المخاطب .
- كان سيبويه يتخيّل المخاطب في ضوء أحواله كُلّها فإن كان عارفًا فسَّر ذلك بما يستحقه من معنى يخرج إليه ذلك التركيب كالتعظيم والتحقير والذم والتعجب والاستغاثة وغير ذلك .
- ويغوص سيبويه وغيره من النحويين كثيراً في باطن المخاطب لمعرفة أسراره وشكوكه وظنونه واعتقاداته لتأتي الأحكام متناسبة مع هذه الحالات التي يكون عليها المخاطب .
- وقد وجدت من خلال البحث في كتاب سيبويه أَن المتكلم لا يعتمد على حاسة واحدة في معرفته لمختلف الحالات بل يسخر سمعه وبصره وشمه ولمسه وذوقه لادراكها ليصوغ أَحكامه وفقاً لما توصله إليه تلك الحواس

ومما لا يخفى أن إيراد حالات المخاطب كلها يستلزم اتساعاً في البحث لا يستوعبه هذا البحث الموجز ، غير أن ما ذكرته من أمور تمنحني الطمأنينة إلى أن النحويين الأَوائل ربطوا أحكامهم وتعليلاتهم وتفسيراتهم بحالات المخاطب بإدراك ووعي كبير ، لذلك يمكنني القول بأن النحويين الأوائل كانوا رواداً في الكشف عن تلك الأحوال وكانوا مبدعين في بيانهم لطرفي الحوار وأثر كل منهما في الآخر في صياغة الأحكام .

## الهوامش

١- التلخيص ٣٣-٣٤ ، وينظر : أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة ١٢٢ .

٢- دلائل الإعجاز ٤٠٨ .

٣- الخصائص ٢٤٧/١ ، وينظر : التفكير اللساني في الحضارة العربية ١٤٧ .

٤- الكتاب ٢٣١/٢ .

٥- الكتاب ٢٤٤/١، وينظر الأصول ١٧١/١والنكت ٣٣٣/١ .

٦- الكتاب ٢٣٢/٢ .

٧- الكتاب ٢٠٨/٢ .

٨- ينظر : كتاب سيبويه ٢٢٩/٣-٢٣٠ .

٩- ينظر : الأصول ٤٠١/١ .

١٠-الكتاب ٢٣١/٢ .

١١-الكتاب ٢٣٩/٢ .

١٢-الكتاب ١٣٠/١ .

١٣-الكتاب ٢٥٧/١-٢٥٨، وينظر النكت ٣٢٨/١ .

١٤- ينظر : الرد على النحاة ٨٧-١٢٩ .

١٥- ينظر : المصدر نفسه .

١٦- ينظر : المصدر نفسه .

١٧- الكتاب ٢٧٥/١ .

١٨- ينظر : الرد على النحاة ٨٧-١٢٩ ، وينظر : في النحو العربي : نقد وتوجيه ٢٢٥ .

١٩- الكتاب ٣٥٦/١ .

٢٠- المصدر نفسه ١٣٠/٢ .

٢١- المقتضب ١٢٩/٤، وينظر : الكتاب ١٣٠/٢ .

٢٢- الكتاب ٢٩٦/١ .

٢٣- المصدر نفسه ٣٤٧/٢ .

٢٤- ينظر : حاشية الكتاب ٣٤٧/٢، وينظر : النكت ٣٦٢/١ .

٢٥- ينظر : الكتاب ١٠٦/٣ .

٢٦- حاشية الكتاب ١٠٦/٣ .

٢٧- الكتاب ٣٨٩/٢ ، وينظر : نظرية النحو العربي ٩٥ .

٢٨- شرح الكافية ٢٤/٢ .

٢٩- شرح الكافية ٤٠/٢ .

٣٠- ينظر : الكتاب ٣/١١٤-١١٥ وما بعدها .
٣١- حاشية الكتاب ٣/١١٥، وينظر النكت ٢/٧٥٩ .
٣٢- الكتاب ١/٢٩٢ .
٣٣- المصدر نفسه .
٣٤- الكتاب ١/٢٢٨ .
٣٥- الكتاب ١/٩٣-٩٤ .
٣٦- الكتاب ١/٤٣١ .
٣٧- الذاريات ٢٤،٢٥ .
٣٨- مغني اللبيب ٢/٣٨٣ .

**ثبت المصادر والمراجع :-**


١- الأصول في النحو : أبو بكر محمد بن سهل ابن السّراج البغدادي ( ت ٣١٦ هـ ) تحقيق د . عبد الحسين الفتلي مطبعة النعمان ــ النجف الأشرف ١٩٧٣ م .
٢- أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة : نايف حزما ــ سلسلة عالم المعرفة ، المجلس الوطني للتقافة والفنون والآداب ، الكويت ١٩٧٨ م .
٣- التفكير اللساني في الحضارة العربية : د. عبد السلام المسدّي ــ الدار العربية للكتاب ، ليبيا ــ تونس ١٩٨١ .
٤- التلخيص في علوم البلاغة : جلال محمد بن عبد الرحمن الخطيب القزويني ، ضبطه وشرحه الأستاذ عبد الرحمن البرقوقي ، المكتبة التجارية الكبرى / مصر .
٥- الخصائص : أبو الفتح عثمان ابن جني ( ت ٣٩٢ هـ ) ، تحقيق محمد علي النجار ، وزارة الثقافة والإعلام ، دار الشؤون الثقافية العامة بغداد ١٩٩٠م مشروع النشر العربي المشترك ــ الهيئة المصرية العامة للكتاب .
٦- دلائل الإعجاز في علم المعاني : عبد القاهر الجرجاني ( ت٤٧١ هـ) تصحيح السّيد محمد رشيد رضا ــ الناشر دار المعرفة للطباعة والنشر ، بيروت ، لبنان ١٣٩٨هـ ــ ١٩٧٨م .
٧- شرح الكافية في النحو ابن الحاجب : رضي الدين محمد بن الحسين الاستراباذي ( ت٦٤٦هـ ) دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ١٤٠٥هـ ــ ١٩٨٥م .
٨- في النحو العربي نقد وتوجيه : د. مهدي المخزومي ( ت ١٩٨٩) منشورات المكتبة العصرية ١٩٦٤ م ، صيدا ــ لبنان ــ ط ١ .
٩- كتاب الرد على النحاة : ابن مضاء أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد القرطبي ( ت٥٩٢هـ ) دار المعارف القاهرة ط ٢ .

١٠- كتاب سيبويه : سيبويه ، أبو بشر عمر بن عثمان ( ت١٨٠هـ ) تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ط ٢ ١٩٧٧م .
١١- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب : ابن هشام ، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصاري ( ت٧٦١هـ ) تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة المدني ـ القاهرة .
١٢- المقتضب : أبو العباس محمد بن يزيد المبّرد ( ت٢٨٥هـ ) تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة ـ عالم الكتب ـ بيروت .
١٣- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث : د. نهاد الموسى ـ المؤسسة العربية للدراسات والنشأة .
١٤- النكت في تفسير كتاب سيبويه : الأعلم الشمنتري ، أبو الحجاج يوسف بن سليمان بن عيسى ( ت٤٧٦هـ ) تحقيق زهير عبد المحسن سلطان ، منشورات معهد المخطوطات ط ١ ، الكويت ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م .